فكاهات

الحب البنوي [1]

على بُعد ست مئة غلوة من مدينة توبلسك عاصمة سيبير يا بلدةٌ تدعى سايمكا جعلتها حكومة روسيا منفى للمحكوم عليهم من رعاياها . ويجاور تلك البلدة غابةٌ كبيرة تكثر فيها المستنقعات والى جانبها بحيرةٌ صغيرة قلّ ان يفارق الجليد سطحها وتهبّ الرياح القارسة من الشمال حاملةً قطع الثلج فتنثرها على الاشجار وتلطم بها الاوراق فيسمع لحركتها انينٌ مؤثر يرنّ في ذلك الفضآء الموحش كأنهُ جرس حزن يُقرع أيذاناً بفقد السرور وضياع الآمال من قلوب المنفيين في ذلك المكان

وكانت تسكن في ذلك القفر اسرة بولونية مؤلفة من والدٍ كهل وزوجتهِ وهي لا تتجاوز الثلاثين من العمر وابنةٍ لهما في مستهلّ ربيع الحياة . وكان التضييق على هذه الاسرة بالغاً اشدَّهُ فلم يكن يُسمح لاحدٍ من افرادها باجتياز حدود ذلك القفر او الدنوّ من سايمكا والاختلاط بسائر المنفيين أو قبول احد في منزلهم فكانت علائم الحزن واليأس بادية في وجه ذلك الاب التعس مهما اجتهد في كتمان شعورهِ ولم تكن قرينتهُ بأقلّ منهُ حزناً والتياعاً غير انها كانت تبالغ في اخفآء كمدها وتظهر امام زوجها بمظهر البشاشة والابتسام قصد ان تخفف من بلاياهُ وتلطف من احزانهِ . ولم يكن ذلك الا ليزيد في عذاب بطرس زوجها اذ يرى نفسهُ السبب في تنغيص عيش قرينتهِ وفلذة كبدهِ وكثيراً ما نصح لها ان تبقى في وطنها بعيدةً عما هو فيهِ من البؤس والشقآء رحمةً بها وشفقةً على ابنتها التي لم تكن قد تجاوزت بعدُ سنتها الرابعة فأبت الاّ ان ترافقهُ الى منفاهُ وتشاركهُ في الضرّآء كما كانت تقاسمهُ السرّآء

(١) معربة بقلم السيدة لبيبة هاشم

وكانت فتاتهما واسمها اليزابيت قد بلغت في عهد روايتنا اربعة عشر ربيعاً وهي باهرة الجمال لطيفة الاخلاق كوردة في كمها ينبعث طيب عرفها الى قلب ذينك الوالدين فينعشهما ويُسمع لضحكها قهقهة اشبه بزقزقة العصافير وألذ وقعاً من اجمل الالحان . وكانت تقضي اكثر أوقاتها في الخلآء تجري فوق تلك الهضاب وتجني من ازهار الخريف ما تجود بهِ الطبيعة بعد انقطاع الثلوج ثم تعود الي المنزل فتأخذ بعض الدروس عن والدها ثم تساعد والدتها في ترتيب ذلك المنزل الصغير . وكانت اليزابيت حتى تلك الساعة تحسب نفسها اسعد الناس حالاً بتلك المعيشة البسيطة ولكنها ما لبثت بعد ان بلغت هذه السنّ ان استيقظت مداركها فتنبهت لذلك التضييق الذي لا بدّ ان يكون لهُ سبب اوجبهُ وجعلت تستوضح اباها ذلك السرّ الذي اشكل عليها حلهُ فأعلمها انهم منفيون ولم يشأ ان يزيد شيئاً على ذلك حتى لا يكدّر صفآء حداثتها بمعرفة ما وقع عليهم من الجور وما سيموا من ضروب الذل والامتهان بعد ما كانوا فيهِ من العز ورغد العيش

ومن تلك الساعة تبدلت هيئة اليزابيت وغلب عليها السكوت والتفكر واصبحت حين تخرج من المنزل لا تلتفت الى طيورها وازهارها بل تلزم البكآء والابتهال الى الله ان يعاونها على انقاذ والديها لانها رأت نفسها الشخص الوحيد الذي يمكن ان ينالهما مساعدة بواسطتهِ . وما زال هذا العزم قبلة افكارها ووجهة آمالها مدة سنتين كاملتين وهي في كل يوم تزداد جرأةً وتصميماً واخيراً عزمت على السفر الى بطرسبرج والتماس العفو لابيها من القيصر . غير انهُ بقي عليها ان تعرف اسم والدها الحقيقي وموطنهُ والسبب الذي نفي من اجلهِ فتوسلت الى ابيها يوماً ان يوضح لها ذلك فأجابها باسماً ان وطني حيث تكونين انتِ واسمي ابو اليزابيت الجميلة . فلزمت الصمت ورأت ان الصبر اولى بها . وكانت لعهد اربع سنوات مضت قد عرفت شاباً يدعى سمولف ابن حاكم سايمكا وكان قد وُكل اليهِ امر المنفيين وهو فتى في الثالثة والعشرين من العمر تبدو عليهِ ملامح النجابة والشهامة . وذلك انهُ اوغل في الغابة يوماً اذ كان يصيد واتفق ان اباها كان في الغابة ايضاً وقد وقع في خطر من

الوحوش الضارية فأنقذهُ منهُ بشجاعة فائقة واوصلهُ الى منزلهِ فاستقبلتهُ اليزابيت ووالدتها بما يستحقهُ عملهُ من الشكر ومنذ ذلك الحين كانت اليزابيت لا تنفك عن الافتكار فيهِ واثقةً بأنهُ الشخص الوحيد الذي تنال بمعاونتهِ ما تتمنى من انتشال والديها من تلك الوهدة

وحدث في بعض الايام ان خرج والدها للصيد بعد ان انقطع عنهُ اعواماً اجابة لتوسلات قرينتهِ لانها كانت تخشى وقوعهُ في خطرٍ ثانٍ فسار واعداً بسرعة العودة ولكن مضى ذلك النهار و بطرس لم يعد حسب وعدهِ. فقلقت زوجتهُ وابنتهُ اشدّ القلق وخرجتا تبحثان عنهُ وما زالتا سائرتين الى ان كلت قوى الام فسقطت خائرة العزم وعندئذٍ سمعتا صوت طلق بارود فاسرعت اليزابيت الى جهة الصوت وهي لا تشك انهُ صادر من يد والدها اذ ما من احدٍ يطرق تلك الاماكن . ولكنها وقفت مبهوتةً اذ رأت على نور الشفق فتى لا تعرفهُ فتقدمت اليهِ وسألتهُ عن والدها فاجابها الشاب اني لا اعرف والدكِ يا بنية ولكن اعلم انهُ يستحيل عليكِ البحث عنهُ في مثل هذا الوقت وهذه الاماكن المخيفة . وكان المطر قد بدأ يهطل والظلام يمد رواقهُ والريح تهب بقوةٍ معلنةً قرب حدوث الزوبعة . فاجابت اليزابيت وقد خنقت صوتها العبرات. اني لا اخاف شيئاً في العالم الا فقد والدي . ثم حوّلت وجهها لتنصرف فاستوقفها الشاب وقد اثرت فيهِ حالتها كما اثر فيهِ جمالها وشجاعتها وسألها عن اسم والدها فقالت بطرس سبرنجر . فقال اني اعرفهُ ولقد كنا معاً منذ ساعة ثم افترقنا وسار في طريقهِ نحو المنزل ولا بد ان يكون قد وصل اليهِ الآن فاطمئني . فشكرتهُ الفتاة وعادت مسرعةً لتزف الى والدتها تلك البشرى وما هي الا بضع دقائق حتى كان الثلاثة متعانقين عند باب المنزل وعلى مقربة منهم ذلك الشاب الذي تقابل مع اليزابيت وقد دفعهُ عامل الاهتمام بامرها الى اللحاق بهما والاطمئنان عن وجود ابيها . و بينما هم كذلك التفت بطرس فرأى الشاب وكان لم يزل واقفاً يمسح دمعتين سقطتا على خدّيهِ لدى ذلك المشهد المؤثر فناداهُ قائلاً لقد تأخرت يا عزيزي سمولف عن الرجوع وليس في وسعي ان اضيفك في منزلي.

فصاحت المرأتان وهل المسيو سمولف منقذك الفاضل هنا ثم اقبلتا نحوهُ وكانت دموع المرأة تترجم عن عواطف شكرها وسرورها و بادرتهُ اليزابيت قائلةً ثق يا سيدي اننا ما برحنا منذ اربع سنوات نردد ذكرك ونسأل الله ان يباركك ويكافئك عنا خيراً

فاجاب سمولف بمنتهى الاحتشام لقد كافأني باكثر مما استحق يا سيدتي اذ ساقني اليكم وسمح لي بلقياكم . و بعد ان تبادل واياهم بعض الاحاديث سار مشيعاً بادعيتهم الحارة وتوالت زياراتهُ بعد ذلك مدفوعاً بعامل الشوق لمشاهدة اليزابيت التي لم تفارق صورتها مخيلتهُ منذ تلك الساعة

وقابلتهُ يوماً اليزابيت على انفراد فسألتـهُ ان يوافيها الى قرب البحر حيث اعتادت ان تصرف اكثر اوقاتها . فلبى طائعاً وفؤادهُ يرقص طرباً لانهُ استشفّ من ورآء هذا الموعد مع ما كان يؤنسهُ من انعطافها نحوهُ وشدة سرورها بلقيـاهُ انها تميل اليهِ فصمم على ان يكشف لها قلبهُ و يعقد معها عهداً على الاقتران . وفي الموعد كانت اليزابيت قد سبقتهُ الى المكان المعين فحين رأتهُ صاحت بصوتٍ يمازجهُ السرور لو تعـلم يا سيدي باي شوق انتظر قدومك . فبرقت اسرة الشاب وقبل ان يجيبها قالت اصغِ لي يا مسيو سمولف فاني في حاجة اليك لان تعاونني على انقاذ والدي من ذل النفي فهل تعدني بذلك

فبهت سمولف لدى استماعهِ تلك العبارة التي على بساطتها كانت كافية لتبديد آمالهِ والذهاب ببهجة امانيهِ غير انها لم تغير شيئاً من عواطفهِ بل زادتهُ احتراماً لتلك الذات الملائكية التي كانت مشتغلة بما هو اسمى من الحب فجثا عند قدميها واقسم لها على ما طلبت . فبكت اليزابيت تأثراً وشرعت تقص عليهِ حديث نشأتها في ذلك القفر واوضحت لهُ مكنونات قلبها وتصميمها على السعي في سبيل الحصول على العفو عن ابيها الذي لا تعلم سبباً من اسباب نفيهِ ولكنها تعتقد برآءتهُ من كل تهمة . فاجابها اني سعيد يا اليزابيت بما نلتهُ من ثقتكِ بي وما عليكِ الا ان توضحي لي نوع المساعدة التي تريدينها مني فتجديني مستعدًّا الان اريق دمي في سبيل تحقيق

امانيكِ . فقالت ان ما اطلبهُ هو معرفة اسم ابي الحقيقي واسم بلدهِ ونوع التهمة التي نفي بسببها ثم ايضاح السبيل الذي ينبغي ان اسلكهُ لكي اصل الى مقابلة القيصر والمعلومات التي احتاج اليها في قطع المراحل الشاسعة التي بيني و بين بطرسبرج والاماكن التي يمكنني ان آوي اليها . وقبل كل شيء اود ان تضمن لي رضى والدك عن سفري هذا فلا يسخط على ابي ويأخذهُ بذنبي . فجعل سمولف اولاً يبين لها صعوبة هذا السفر وما فيهِ من المشقات والاخطار حتى اذا رآها لا تبالي بشيء من ذلك ولا ترجع عن عزمها وعدها بان يعود اليها بعد اسبوع حاملاً جميع المعلومات التي تطلبها . وختم بقولهِ ان ابي شهمٌ غيور لا يستآء من عملكِ ولا ولا يرفض ان يدعوكِ ابنةَ لهُ . . . ثم قال سامحيني يا البزابيت اذا رأيتِ لساني يبوح بما انتِ في شاغلٍ عن سماعهِ ولكن هو قلبي الذي ثمل بحسن سجاياكِ كما هام برائع جمالكِ فاصفحي وانسي كلماني الآن ولكن اذا اتى اليوم الذي تنقشع فيهِ غيوم احزانكِ ويزول ما يكدر صفآء بالكِ فاذكري محبًّا تمنى ان يقاسمكِ حياة الوحدة والذل مفضلاً العيش بقربكِ على العالم وما فيهِ من المجد والمسرّات

ومضى اسبوعٌ على تلك المقابلة كان في عيني اليزابيت اطول من سنة وسمولف لم يرجع اليها كما وعد . ثم مضى الاسبوع الثاني والثالث فقلقت افكارها وخشيت ان يكون قد نسيها او عرض لهُ ما يعرقل مساعيها ومع ذلك فانها لم تقنط من رحمة الله ولا انفكت عن الابتهال اليهِ تعالى ان يأخذ بيدها و يسدد خطواتها . وكان والداها ملاحظين حركاتها وشاعرين باحزانها وقلب كل منهما يتقطع جزعاً . ورآها ابوها يوماً تبكي بمرارة فضمها الى صدرهِ وسألها عن شأنها فلم تقوَ على الكتمان و باحت لهُ بما تنويهِ فبكى الاب تأثراً واعجاباً ولم يجد ما يجيب بهِ تلك الابنة التي افحمتهُ بحديثها وتوسلاتها التي كانت تشف عن نُبل اخلاقها وعلو نفسها

و بينما هما كذلك اذ سمعا صوت وقع اقدامٍ امام المنزل فنهض الوالد لاستقبال الوافدين واذا شيخٌ وقور يتبعهُ حاشية من الخدم فدخل وترك حاشيتهُ في الخارج . و بعد ما سلم وجلس عرّفهم بنفسهِ انهُ ابو سيمولف ثم نظر الى اليزابيت باسماً وكانهُ

قد قرأ ما يجول في عينيها من مرّ الانتظار فوجه حديثهُ الى والديها قائلاً اني اهنئكما بهذه الدرة الفريدة التي يليق بوالديها ان يفخرا بها ويباهيا بآدابها . ثم اقترب من الفتاة ودفع اليها رسالة من ابنهِ فتناولتها منهُ ولكنها لم تجسر ان تفتحها وتقرأها فدفعتها الى والدها فاخذها وهو يبتسم اعجاباً بادبها وذكآئها وفض الرسالة واذا هو يقول فيها انهُ لم يتمكن من القيام بوعدهِ لها اذ صدرت اليهِ اوامر القيصر بالسفر سريعاً فلم يسعهُ الا المبادرة دون ان يتمكن من وداعها وانهُ سيعود بعد مدة قصيرة فينبغي ان لا تبرح سايمكا الى ان يعود فيسافر معها . وبعد ان اتمّ ابوها قرآءة الرسالة التفت اليهِ والد سيمولف وقال ان ولدي ربما تطول غيبتهُ عدة اشهر ولذلك اري ان تسافر اليزابيت الآن ولا يبعد ان تصادف سمولف في بطرسبرج او في موسكو وقد عينت لمرافقتها كاهناً طاعناً في السن ستجد في شيخوختهِ آمن رفيق تنتفع من خدمتهِ وحسن اختبارهِ وليكن ذلك بعد اسبوع . واودّ منكم ان يبقى هذا الامر مكتوماً لا يعلم بهِ احد لئلا يجرّ عليّ ما لا نجاة لي منهُ . ثم نهض الشيخ فودعهم وانصرف بعد ما شكرتهُ اليزابيت ووالدها من اعماق قلبيهما

اما والدة اليزابيت فلما علمت بالامر صاحت من فؤاد مقروح ماذا اسمع . . ابنتي تبتعد عني . . ابنتي تسافر الى بطرسبرج . . فجثت اليزابيت على قدمي والدتها وجعلت تتوسل اليها بكلام يلين لهُ الجماد وتستحلفها باسم السمآء وبحبها ان لا تمنعها من اتمام هذا الواجب المقدس . اما هي فضمتها الى صدرها قائلةً لا تكسري قلبي يا اليزابيت فاني احتملت كثيراً من متاعب الحياة وفي استطاعتي ان احتمل اكثر من ذلك اما فراقكِ فلا قدرة لي على احتمالهِ . وقال ابوها والدمع ينحدر من عينيهِ اني لم اكن اعرف للضعف معنى يا ولدي فجئتِ تعلمينهِ الآن

وما زالت اليزابيت تستعطفهما الى ان بدت على وجه ابيها امارات الاقتناع فنظر الى زوجتهِ وقال لها بصوت تخنقهُ الدموع لندعها تسافر ابنتها العزيزة فان الله الذي الهمها القيام بهذا الواجب قادر ان يحرسها . فقالت كلاّ اني لا اوافقك على ذلك ولا ارضى ان اعرّض ابنتي لاهوال هذا السفر البعيد واقدمها فريسة لانياب

البرد والجوع والشقآء واعيش بعد ذلك لابكيها وارثيها . ثم علا نحيبها وعادت تضم فتاتها الى صدرها كأنها خشيت عليهـا ان تختطفها ايدي البعاد . فقالت اليزابيت معاذ الله ان اسافر بدون رضاكِ يا اماه ولكن لنصلِّ الى الله عساهُ ان يلهمكِ ما بهِ خيرنا جميعاً . ثم جثا الثلاثة واشتركوا في صلاةٍ حارة ولما رفعت اليزابيت رأسها عند نهاية الصلاة لمحت في وجه والدتها علائم القبول فلم تجسر على مفاتحتها بشيء وتركت الامور تجري في مجراها

وبعد مضيّ اسبوع حضر الكاهن وما وقعت عينا الوالدة عليهِ حتى صاحت جزعاً وشعر الكاهن بثقل مصيبتها فجعل يعزيها بكلام رقيق . وخلت اليزابيت بوالدها تلك الليلة فأطلعها على حقيقة امرهِ وان اسمهُ الحقيقي ستانسلاس بوتوسكي . اما الذنب الذي ارتكبهُ فهو شدة حبهِ لوطنهِ وذلك انهُ في بعض الحروب التي اثارتها روسيا على بولونيا كان في جملة الحزب الذي قاومها وهيج الشعب ضدّها ولكنهم وقعوا في يدها بعد ان استولت على القسم الذي كانوا فيـهِ وانفذت فيهم نقمتها وكان نصيب ستانسلاس ان سُجن في بطرسبرج حولاً كاملاً ثم صدر الامر بنفيهِ الى سيبيريا . قال وكنتِ اذ ذاك طفلةً فأبت والدتكِ الا ملازمتي في هذا السفر الشاق الذي قطعناهُ مشياً على الاقدام فوق الثلوج وانتِ على ذراعي والدتكِ ومن حولنا الجنود تسوقنا سوق النعام . ثم توقف وزفر زفرةً حارة وقال مسكينة هذه الزوجة الفاضلة كم قاست لاجلي من الآلام والهوان فهي التي بدلت مرارة وحدتي بحلاوة قربها وفرجت همي بعذوبة الفاظها فاذا كنت قد ذقت شيئاً من السرور في كل هذه المدة فبمجاملتها لي واذا رغبت في النجاة فلكي اقوم لدنها ببعض المكافأة واقابلها بما ينسيها هذا الشقآء

وقضت اليزابيت اليوم التالي في اعداد ما يكفيها من الزاد بضعة ايام . ولما كان المسآء جثت وطلبت الى والديها بصوتٍ خافتٍ ان يباركاها ولما اقترب والدها ضغطت على يدهِ ففهم ان ذلك آخر وداع فجمد الدم في عروقهِ واحتبس صوتهُ . ثم نظرت الى والدتها وقالت وانتِ يا اماه لمَ لا تباركيني . فأجابتها غداً يا ولدي .

قالت ولمَ لا يكون ذلك الآن بل في كل يوم وكل ساعة . فتقدمت ووضع الزوجان ايديهما على رأس الفتاة الجاثية واشتركا في صلاة حارّة ممزوجة بالدموع

وما انبثق فجر اليوم التالي حتى تأبطت اليزابيت كارة ثيابها وزادها وخرجت مع الكاهن خلسةً فما طلعت لهما الشمس حتى كانا قد قطعا مسافةً طويلة . وقضى المسافران ثلاثة اشهر على الطريق صادفا في اثنآئها كثيراً من المشقات والاتعاب واخيراً مرض الراهب من تأثير التعب والبرد فأوت بهِ اليزابيت الى فندقٍ صغير في سابادول ولم تطل ايام المريض فانتقل الى رحمة ربهِ تاركاً تلك الفتاة الشقية في اسوأ حال وقد سقطت عند سريرهِ غائبةً عن الوجود . وفي تلك الفترة اتى صاحب الفندق وبحث في امتعتهما فوجد كيساً من النقود كان ابو سمولف قد سلمهُ الى الكاهن ليستعين بهِ مع رفيقتهِ في السفر فاختلسهُ وادعى بعد نهاية الدفن انهُ انفق ما فيهِ من النقود على تجهيز الميت ودفنهِ ولم يبقَ منها سوى ثلاث روبلات فتناولتها اليزابيت شاكرة وكانت جميع ما تملكهُ من النفقة التي تبغي الوصول بها الى بطرسبرج

وواصلت المسير بعد ذلك وحدها غير مبالية بما كان يعترض سبيلها من المشقات والمخاوف الى ان وصلت الى موسكو وقد مضى عليها تسعة اشهر . فرأت تلك العاصمة غاصة بجماهير الناس وسمعت لحركتهم جلبةً وضوضاة يمازجها الهتاف وصوت اطلاق المدافع . فسألت بعض المارّة عن معنى ذلك فاجابها اننا نحتفل اليوم بقدوم القيصر . فقالت وهل القيصر هنا او ليس هو في بطرسبرج . فقال ألا تعلمين انهُ قادم للاجتفال بتتويجهِ في كنيسة موسكو . فخفق فؤاد اليزابيت سروراً بقرب الامل وهتفت بالشكر لله على تلك النعمة . وكانت قد كلت قواها من طول المسير وعضها الجوع بنابهِ لانها كانت لم تذق طعاماً ذلك النهار وعبثاً طرقت منازل بعض القوم تطلب القوت والمأوى فلم يكن من يرثي لها او يجيب سؤالها . وشعرت بانها لم تعد تقوى على احتمال ذلك طويلاً ولم تشأ ان تستسلم لليأس والهلاك لانها رأت حياتها ليست لها ويلزمها ان تحافظ عليها . وكان الظلام قد اقبل يجر ورآءهُ زمهرير الرياح وزمزمة الرعود وبينما هي هائمة من شارع الى آخر اذ احدقت بها شرذمة

من الجند وجعلوا يسألونها عن امرها بكلمات لم ترق نغمتها لتلك الفتاة الطاهرة وهموا ان يقتادوها الى المخفر لانهم ظنوها من اهل الريبة . واتفق في تلك الساعة ان مرَّ من هناك رجل من اماثل القوم يقال لهُ جان روسي وسمع كلامهم وكلامها فاخذتهُ الشفقة عليها وسأل الجنود ان يسمحوا لهُ بها لانهُ استشفَّ من لهجتها انها من ذوات الصون فاجابوا طلبهُ وسار بها الى منزلهِ حيث عاملتها قرينتهُ بكل تلطف وحنان . وبعد ان اكلت واستراحت شرعت تقص على مضيفيها تاريخ حياتها وسبب قدومها حتى اذا علما انها آتية لطلب العفو عن والدها قال لها جاك انهُ غداً سيُحتفل بتتويج القيصر فعليكِ ان تقفي في طريقهِ وهو داخل الى الكنيسة وترمي بنفسكِ عند قدميهِ طالبة العفو واكون انا حينئذٍ برفقتكِ فآخذ بيدكِ واعضدكِ فتشجعي

ففاضت عينا اليزابيت بدموع الشكر وقالت ليسمع الله لك وليباركك والداي . ولما اشرق نور الصباح تردت اليزابيت بثوبٍ اعارتها اياهُ ربة البيت وسارت الى جنب جاك خافقة القلب ثابتة القدم الى ان انتهيا الى الكنيسة . فتسللا بين جماهير الناس ودخلا حتى وقفا على مسافة قريبة من العرش وتمكنا من مشاهدة القيصر والقيصرة وهما داخلان حتى اذا استقرَّ بهما المقام اقيمت الفروض الكنائسية باحتفال عظيم وتم التتويج بيمين اقسمها القيصر على ان يجعل حياتهُ وقفاً على خدمة شعبهِ ولا يذخر سعياً في سبيل راحتهم وصيانة حقوقهم . وما اتى القيصر على هذه الكلمات حتى علا صوت اليزابيت من بين تلك الجماهير قائلةً الرحمة . . الرحمة . . وكان في نغمة صوتها رنة اثرت على عواطف القيصر فأمر احد حرسهِ وكان اقرب بهم اليهِ ان ينطلق ويبحث عن صاحبة الصوت فأطاع واسرع قاصداً مكان الفتاة وكان الجنود قد اخرجوها من الكنيسة بالعنف فما وقعت عينا الرجل عليها حتى صاح اليزابيت ؟ اليزابيت هنا ؟ في موسكو ؟

فلما سمعت اليزابيت هذا الصوت لم تتمالك ان صاحت سمولف ؟ ثم نشطت نحوهُ مادّةً يديها كالمستغيثة وقد عاشت آمالها بعد ان كان قد تولاها القنوط من مقابلة القيصر وقالت وقد تناثرت اللآلئ من عينيها اني لقد قطعت هذه المسافات

الشاسعة وقضيت تسعة اشهر مشياً على قدمي لاطلب العفو عن ابي وها هم قد طردوني من امام القيصر وحالوا بيني و بينهُ . فقال تعالي معي فلا احد يعترضكِ الآن ودعي القيصر يسمع صوتكِ و يشاهد حالتكِ فلا بد ان يتأثر و يعفو .ثم قادها نحو الهيكل مفرقاً الجنود حتى انتهى بها الى العرش الامبراطوري حيث جثا مع اليزابيت وقال يا مولاي هذه ابنة التعس ستانسلاس بوتوسكي قد اتت من تو بلسك حيث يقيم والداها في المنفى منذ اثنتي عشرة سنة وقد قطعت هذه المسافات على قدميهـا فتحملت كافة انواع العنآء والاخطار في سبيل الوصول الى اعتابك العالية والتماس العفو عن ابيها . ولما انتهى الى هذه العبارة رفعت اليزابيت يديها الناحلتين الى العلآء ورددت قولهُ العفو عن ابي . فنظر القيصر الى محياها المكسوّ بالدموع وقد اثرت فيهِ حالتها ثم التفت نحو سمولف وقال ان من كان لهُ مثل هذه الابنة لا يمكن ان يكون مجرماً وهبهُ كذلك فان الاسكندر يعفو عنهُ . ثم حول بصرهُ نحو الفتاة وقال لقد وهبتُ لكِ اباكِ فهو حرّ من الآن . فما سمعت اليزابيت هذه الكلمات حتى خرّت مغشيًّا عليها من شدة الفرح

ولما عاد اليها رشدها وجدت نفسها في منزل جاك روسي وامامها سمولف فهنأها بما نالت من العفو عن ابيها ولبث يزورها كل يوم الى ان صدر الامر الامبراطوري برجوع سبرنجر الى الوطن فاستلم سمولف الامر وانطلق بهِ نحو اليزابيت مسرعاً فألقاهُ اليها بين عبارات التهاني وابتسامات السرور . فتناولت الفتاة ذلك الامر الذي كان يحتوي على مفاتيح سعادتها وادنتهُ من فيها فغسلتهُ بالدموع . فقال لها سمولف ان القيصر لم يعفُ عن جرم والدكِ فقط بل اعاد اليهِ ثروتهُ والقابهُ ورتبهُ وغداً يبعث بالامر الى ابي ليفرج عن والدكِ وسأذهب في صحبة هذا الرسول . وقد امر القيصر بأن تُعدّ لكِ عربة فاخرة تقلكِ الى هناك و بأن يكون معك امرأتان ترافقانكِ

وفي غد ذلك اليوم ودعت اليزابيت مضيفيها وسارت شاكرةً افضالهما وسار في صحبتها المرأتان وسمولف فانطلقت بهم العربة تنهب الارض نهباً . وعرّجت في طريقها على ضريح الراهب فكللتهُ بالازهار وودعتهُ بصلاة حارّة ثم استأنفت

المسير وهي تودّ لو ان لها جناحين تطير بهما الى والديها

ولما انتهت الى مدينة تو بلسك و بلغت منزل والديها نظرت الى سمولف قائلةً من يعلم بأي حالةٍ اراهما الآن . ثم دفعت الباب ودخلت وحين ابصرها والداها هتفا هتاف الاستبشار واحاطا بها يعانقانها و يغسلان وجهها بدموعهما فصاح سمولف ها هي ابنتكما قد عادت اليكما تحمل العفو . غير ان كلماتهِ لم تؤثر على والديها اللذين بلغ منهما السرور برجوع ابنتهما مبلغـاً لم يترك مجالاً للاكتراث بأمر سواهُ فكانا يحدقان اليها ببصرهما ثم يعودان لتقبيلها دون ان يجدا سبيلاً للافصاح عن عواطفهما . وحينئذٍ اقترب منهم سمولف وهو يكفكف دموعهُ وقال لوالديها ان لكما ابناً آخر فان اليزابيت قد تكرمت ودعتني بأخيها غير اني اتجرأ وانا جاثٍ على اقدامكما ان احصل منها على غير هذا الاسم

واذ ذاك شرعت اليزابيت تقص عليهما ما بذلهُ سمولف من الهمة وما ساعدها بهِ من المساعي التي لولاها لم تنل العفو ولا تسنى لها ان تكون في تلك الساعة بين اذرعهما . ثم قالت واني لا ادري كيف اعبر لهُ عن شكري و بماذا اكافئهُ على صنيعهِ و باي شيء اقابلهُ على جميلهِ العظيم . فاجابت والدتهـا قابليهِ بالحب الذي قابلتُ بهِ اباكِ . وقال سبرنجر اجل فانكِ اذا جعلتِ جزآءهُ قلبكِ فهي الغاية التي ليس ورآءها من مزيد . فضمت اليزابيت يد سمولف الى ايدي والديها ونظرت اليهِ نظرةً نفذ نورها الى اعماق فؤادهِ وترجمت لهُ عما عجز اللسان عن تبيانهِ • فصاح سمولف يا لها من سعادة شملت فؤادي ثم غلب عليـهِ السكوت وقد ثمل بخمرة الامل وشعر انهُ اسعد من وجد تحت السمآء

ولم يكن سوى بضعة ايام حتى ودعت اسرة بوتوسكي ذلك القفر الذي ذاقت فيهِ من ضروب اللذة والسرور في يومٍ واحد ما انساهم ذل النفي مدة اثنتي عشرة سنة وعادوا الى مرتع الحرية ونعيم الحياة وعُقد لسمولف على اليزابيت في حفلة باهرة كان السرور فيها شاملاً والهنآء مضاعفاً